إشكالية الهوية والعولمة الثقافية

أ.بوزغاية باية
– جامعة قاصدي مرباح – ورقلة
أ.بن داود العربي–
جامعة قاصدي مرباح – ورقلة

الملخص:

تنطلق هذه الورقة البحثية من محور الهويـــة والعولمـــة الثقافيـــة الجديـــد والتحديات والإشكاليات والآفاق التي يطرحها هذا الواقع النوعي في كافة المجالات الرئيسية لحياة أبناء لغة الضاد.و ذلك في ظل العولمة والثورة الهائلة فـــي مجـــال الاتصالات والمواصلات وتحول العالم إلى قرية صغيرة تتفاعل تكاملا وتناقضا سلما وحربا،في مختلف القضايا التي تواجهها البشرية، من المستحيل علينا سبر أغـــوار الهوية الجديدة وتداعياتها بعيدا عن التفاعلات الحيوية مع القضايا العربية في ظـــل الأوضاع الدولية الراهنة.

فهناك، وكما تبين الوقائع الحالية، إرتباط مباشر وعضوي بين ما يحدث في الوطن العربي والعالم الغربي ، ذلك من خلال تفاعلات موضـــوعية وذاتيـــة مـــع الأحداث والتحولات الجارية. التفاعل هنا يأخذ طابعا جدليا،فما يجري في المجتمعات العربية،تقدما أو تراجعا،بإبعاده الداخلية والخارجية، يؤثر مباشرة في الفرد العربـــي وفي المقابل، فان أوضاع الدول الغربية نفسها ومكانتها في العالم، ومدى نفوذهـــا وإمكانياتها، تؤثر بأشكال وأبعاد مختلفة في المجتمعات العربية ...الأمر الذي يطرح حاجة الطرفين الموضوعية لبعضهما البعض من أجل التعاون والتناغم والتكامل في المواجهة الايجابية البناءة للتحديات. في كل هذا تطمح هذه الدراسة الى تقديم رؤية ايجابية في التعاطي مع الظروف التاريخية الجديدة، وهي تتجسد في التركيز علـــى صياغة رؤية لذاتنا، ووعي جماعي لواقعنا،

تهدف هذه الدراسة الى المساهمة في صياغة رؤية عامة، ووعـــي جمـــاعي للموضوع من خلال الإجابة على مايلي :

-ما العولمة ؟ وهل في صورتها المعاصرة هي الأمركة؟

-هل تؤدي هذه الثقافةُ العالميةُ -حال قيامِها وتأسيسِها – إلـى العـدوان علـى الخصوصيات الثقافية العربية، مما يهدِّد هويات المجتمعاتِ المعاصرة والعربية ؟

تمهيد :

يثير موضوع الهوية والعولمة من الأسئلة أكثر مما يقدم من الأجوبة وهو – كالموضوعات التي لا تزال مصطلحاتها ومد لولاتها في مرحلة التكون – يحتاج إلى التوقف عند الأسئلة التي يثيرها لعلها تفتح مغاليقه. وإذا كان الإسراع إلى الإجابة قـد يوقع في الزلل، فإن التريث عند الأسئلة وتأملها قد يتـيح مجـالا للتأمـل والتـدبر، ولتحقيق ذلك ربما كان من الطبيعي لمن يبحث هذا الموضوع أن يتساءل :

-ما العولمة ؟ هل هي ظاهرة جديدة مستحدثة في هذه السنوات القريبـة؟ أو أنها لفظ جديد للتعبير عن واقع قديم كـان ملازمـا لجميـع الحضـارات الكبـرى والإمبراطوريات العظمى التي استخدمت قوتها -خلال عصور التاريخ- لبسط نفوذها ونشر مبادئها وتحقيق مصالحها ؟

فهل كان امتداد السيطرة الرومانية -مثلا- على العالم المعروف في زمانها، ونشر أنظمتها في الحكم وأنماط حياتها السياسية والاجتماعية والثقافيـة نوعـا مـن العولمة ؟

-هل كل ذلك عولمة أو شكل من أشكالها ؟

وكذلك لابد لمن يتصدى لهذا الموضوع من أن يتساءل :

-هل العولمة في صورتها المعاصرة هي الأمركة؟ وإذا كانت كذلك، هل هـي مـن أنـواع الاسـتعمار الجديـد الـذي يتحقـق دون وجـود جـيش محتـل ؟ وهو سؤال يشتد الخلاف بين المجيبين عنه من مؤيد ومفند. ومن أجل ذلـك يحتـاج الجواب إلى قدر من التمحيص حتى تطمئن النفس إلى ترجيح يسـتند علـى مـرجِّح واضح.

-هل نستطيع حقا أن نفصل بين العولمة وتقليص الهويات القومية والدينية للشعوب أو القضاء عليها، بما تتضمنه تلك الهويات من ثقافة ولغة وتقاليد وأنماط حيـاة ؟

وإذا كان جواب السؤال الأول عن صنيع الحضـارات العظمـى والإمبراطوريـات الكبرى هو أن هذا الصنيع عولمةً، فهل استطاعت تلك العولمة أن تقضي على هويات الأمم والشعوب الأخرى. أو أن الإمبراطوريات زالت وبقيت القوميـات والثقافـات والأديان المتعددة المختلفة ؟

فكان بذلك تأثير العولمة وقتيا، أما تأثير القوميات والأديان فقد كانت له الغلبة والبقاء . ولابد من التنبه للفرق الشاسع بين العصور القديمة وعصرنا الحاضر بوسائل اتصاله وشبكات معلوماته وقُدرته على التغلغل والسيطرة.

– هل تتناقض العولمة مع الديمقراطية ومع التعددية الثقافية والتنوع الحضاري ؟

إذا كانت تتناقض مع كل ذلك بحكم محاولتِها السيطرة والسيادة والانفراد، وبحكم نشرها نموذجاً واحداً ونمطاً بعينه في الاقتصاد وفي الثقافة والاجتماع –وهما نموذج ونمط ينتميان إلى حضارة واحدة في مجموعها، بل إلى مجتمع واحد – فما هو موقف الدولة العظمى التي طالما دعت إلى الديمقراطية وحقوق الإنسان، وفَرضت على الدول التي تنتقص منهما، أنواعا من العقوبات مثل الحصار والمقاطعة؟ أليس هذا مثلا من أمثلة ازدواجية المعايير ؟

–هل العولمة تنتهي حقاً بالتفاهم الدولي والسلام العالمي والتقارب بين الشعوب ؟ أو أنها لابد ستثير مقاومةَ تلك الشعوب دفاعا عن هويتها ومقومات شخصيتها، وبذلك تكون العولمة قد نَثَرت بذور الحروب وأنواع الصراع بدل أن تنشر السلام ؟(1)

–ما هي تأثيرات العولمة في العالم؟ وكيف يمكن للعرب التعامل معها ؟

ولست أدري أكانت هذه الأسئلة موضوعية محايدة أم أن صياغتها حملت بعض فكر السائل وأومأت إلى الإجابة إيماءاً عاما يدل على اتجاهه وموقفه . ومهما يكن من أمر فلا بد من محاولة الإجابة عن بعض تلك الأسئلة دون التقيد بتسلسلها وترتيبها.

- **لمحة تاريخية عن العولمة:**

" فالعولمة "شأنُها شأن " الهوية " و " الحداثة أو الحداثية " و "الديمقراطية " و"حقوق الإنسان " و " الخوصصة " أو " الخصخصة "و" النظام العالمي الجديد "وبعض المصطلحات والألفاظ الأخرى الشائعة منذ سنوات التي لا تزال يكتنفها الغموض، والتي يذهب بعض النقاد والمبدعين والمحللين الاجتماعيين مذاهبَ مختلفة في فهمها وتعريفها وتفسيرها، ولذلك تأتي أحكامهم أحيانا غامضةٌ ومتباعدةٌ بسبب غموض منطلقاتهم واختلاف هذه المنطلقات، حتى أصبح الباحثون في هذا الموضوع والمتحدثون عنه يتساءلون: هل من الأفضل أن تُترك هذه الألفاظ والمصطلحات وأمثالهُا دون تحديد (ربما لأنها بطبيعتها غير قابلة للتّحديد). وأن يُتحدّث عن بعض

مظاهرها ونتائجها وعلاقتها بغيرها، اعتمادا على وُجود قدرٍ مشتركٍ من الفهم بـــين المتحدِّثين عن هذه الألفاظ والمصطلحات، يُتـــيح توصـــيل الآراء والتحلـــيلات إلـــى الآخرين مهما اختلفوا في التفصيلات والفروع.(2)

" العولمة " ترجمة لكلمة " MONDIALISATION " الفرنسية التـــي تعنـــي جعلُ الشيء على مستوى عالمي،أي نقله من المحدود المراقب إلى اللامحدود الـــذي يَنأى عن كل مراقبة.

والمحدود هنا هو أساساً الدولة القومية التي تتميز بحدودٍ جغرافيةٍ وبمراقبـــةٍ صارمةٍ على مستوى الجمارك : تَنقُّل البضائع والسِّلع، إضافة إلى حماية ما بـــداخلها من أي خطرٍ أو تدخُّلٍ خارجيٍ، سواءٌ تعلق الأمر بالاقتصاد أو بالسياسة أو بالثقافـــة. أما اللاَّمحدود فالمقصود به " العالم "، أي الكرة الأرضية.

فالعولمة إذن..تتضمن معنى إلغاء حدود الدولة القومية في المجال الاقتصادي (المالي والتجاري) وترك الأمور تتحرك في هذا المجال عبر العالم وداخل فضـــاءٍ يشمل الكرة الأرضية جميعها. ومن هنا يُطرح مصير الدولة القومية، الدولة /الأمـــة، في زمن تسوده العولمة بهذا المعنى . (3)

على أن الكلمة الفرنسية المذكورة إنما هي ترجمة لكلمة " GLOBALIZATION " الإنجليزية التي ظهرت أول ما ظهرت في الولايات المتحدة الأمريكية. وهي تفيـــد معنى تعميم الشيء وتوسيع دائرته ليشمل الكل، الشيء الذي وجَدتُه حينما بحثتُ عن المصطلح في معجم [ويبسترز–S' WEBSTER] الذي يقول:" العولمة هي إكساب الشيء طابع العالمية وبخاصة جعل نطاق الشيء أو تطبيقه عالميا ".(4)

ولكني ألفيتُ أن هذا المعنى شديد البراءة بالغ الحيدة، لا ينسجم في عمقه مـــع دلالة اللفظ ومفهوم المصطلح كما يُشاع في العالم اليوم.

العولمة في اللغات الأوروبية المختلفة هي سياسة أو سلوك علـــى المســـتوى العالمي "GLOBALISATION" وفي معنى آخر يقصد بها السياسة الكونية ويقال أيضـــاً الكوكبـــة والكوننـــة، وهـــي متقاربـــة مـــع مصـــطلح التـــدويل "INTERNATIONAL"أي كل ما هو أممي، وهذه المصطلحات تصب في المفهـــوم الفكري الذي يضفي الطابع العالمي أو الدولي أو الكوني على النشاط البشـــري وقـــد تختلط الأمور بين (الأنسنة) من الإنسانية وبين العولمة(من العالمية). (5)

وهنا لابد من وقفة نستقبل فيها ما صدر من تصـورات عـن العولمـة . أو تعريفاتٍ توذن بها، وإن لم تبلغ الصحة والدقة المطلوبتين في الحدود بحكم أن العولمة أمرٌ أَنِفٌ غامضٌ، أو غائمٌ لم يتم تَشَكُّله تَشكُّلاً نهائيا بعد .

ويختلف عن هذه التصورات القول بأن العولمة موجةٌ جديدةٌ اقتصادية تلـي الثورة الزراعية والثورة الصناعية، وأنها أعلى مراحل الرأسـمالية الجديـدة التـي أفرزتها الثورة المعلوماتية وما يرافقها من تطور في مَجَالَيْ الاتصال والإعلام .

وتؤكد تصورات أخرى أن القصدَ من العولمة توسيع النموذج الأمريكي وفسح المجال له ليشمل العالم كله، فهي بذلك ترادف الأمركة. ويشدد فريدمان علـى هـذه الحقيقة حين يُصرح في اعتداد وزهوٍ : « نحن أمام معارك سياسية وحضارية فظيعة، العولمة هي الأمركـة والولايات المتحدة قوة مجنونة، نحن قوةٌ ثورةٌ خطيرةٌ، وأولئك الذين يَخشَوننا على حق، إن صندوق النقد الدولي قطة أليفة بالمقارنة مع العولمة، في الماضي كان الكبير يأكل البطيء » .

والمتأمل في هذه التصورات يجدها كلها متطابقة فـي الجملـة مـن حيـث الموضـوع، وإن ظهرت مع ذلك متفاوتة بما امتدت إليه من اهتمامات عند محاولة التعريف بالحقيقة الواحدة، ولعل السبيل إلى وضع حد كامل سيتجلى لنا بعد من خلال المؤسسات القائمة لإنجـاز العولمة، ومن الاتفاقيات الصادرة عنها هنا وهنـاك بـين الدول في العالم، مشاركة منها في بناء النظام الاقتصادي الشامل الجديد، وإشاعة لـه في أطراف المعمورة رغم ترددها في الانتماء إليه والإسهـام فيه بدعوى أن العولمة عندها ليست في واقع الأمر شيئا آخـر سـوى ربـط الـوطن، خـارج التـاريخ .

والعولمة في أصلها اقتصادية، قائمة على إزالة الحواجز والحدود أمام حركة التجارة، لإتاحة حرية تنقل السلع ورأس المال. ومع أن الاقتصاد والتجارة مقصودان لذاتهما في العولمة، إلا أنها لا تقتصر عليهما وحدهما وإنما تتجاوزهما إلـى الحيـاة الثقافية والحياة الاجتماعية بما تتضمنانه من أنماط سلوكية ومذاهب فكرية و مواقـف نفسية، وكل ذلك هو الذي يصوغ هويـة الشعوب والأمم والأفراد.(6)

إن الممارسات المتعولمة على أساس تعميم سياسة معينة أو عـادة أو ثقافـة ليست وليدة العقود القليلة الماضية وإنما هي قديمة من خلال محاولة العديد من الدول الإمبريالية والاستعمارية التي انتصرت في الحروب فرض ثقافتها ولغتها وتطـوير اقتصادها عن طريق الاستعمار المباشر المرتبط بالاحتلال العسكري أو عن طريـق

فرض تعليم لغتها على الدول التي تحتلها أو عن طريق احتلال الدول التي تقع علـى الممرات التجارية والمنافذ البحرية والبرية وعن طريق نهـب الثـروات والمـوارد الطبيعية للدول المستعمرة وهذا ما يعطي البعد التاريخي لظاهرة العولمة وفي العقود القليلة الماضية وبعد صراع كبير بين المعسكرين الاشتراكي والرأسمالي وهـو مـا عرف بالحرب الباردة وبعد انتهاء هذه الحرب بانتصار المعسكر الرأسـمالي هـذا الانتصار الذي تمثل بسقوط جدار برلين وانهيار الاتحاد السوفيتي وهذا ما دل علـى انتصار المعسكر الرأسمالي سارع المعسكر المنتصر إلـى إطـلاق التصـريحات والعمل على فرض السياسات الهادفة إلى فرض تحويل السياسات الاقتصادية للـدول التي كانت تحت سيطرة ونفوذ الاتحاد السوفيتي إلى النموذج الرأسمالي ولو اضطرت إلى استعمال قوة السلاح ومن ثم أصبح هدف هذه الدول فرض النموذج الرأسـمالي المعتمد على الاقتصاد الليبرالي الحر على كل دول العالم ومن ثم تحول هذا الصراع بين دول المعسكر الرأسمالي من أجل فـرض سياسـاتها المؤديـة إلـى السـيطرة الاقتصادية وتبلور هذا الصراع بين الولايات المتحدة والكتل الاقتصادية الرأسـمالية الأخرى بشكل إفرادي وهذا ما أدى إلى صبغ هذا المصطلح بالصبغة" الأمريكية "و هـو الـذي أدى إلـى إطـلاق تسـمية الأمركـة علـى هـذا المصـطلح وإذن.

فمن النتائج المباشرة للعولمة تعميم الفقر، وهو نتيجة حتمية لتعميق التفـاوت. إن القاعدة الاقتصادية التي تحكم اقتصاد العولمة هي: "إنتاج أكثر ما يمكن من السـلع والمصنوعات بأقل ما يمكن من العمل ". إنه منطق المنافسة في إطار العولمة، ومـن هنا نلاحظ أن الظاهرة الملازمة للعولمة وربيبتها الخوصصة هـي تسـريح العمـال والموظفين.

والنتيجة التي يستخلصها الباحثون والمختصون في هذا المجال هي التالية: إذا كان النمـو الاقتصادي في الماضي يخلق مناصب الشغل، فإن النمو الاقتصادي فـي إطار العولمة والليبرالية المتوحشة يؤدي –ويتوقف على– تخفيض مناصب الشغل. إن بعض القطاعات في مجـال الإلكترونيـات والإعلاميـات والاتصال، وهي مـن القطاعات الأكثر رواجا في العالم، لا تحتـاج إلا إلى عدد قليل مـن العمـال. إن التقدم التكنولوجي يؤدي في إطار العولمة والخوصصة إلى ارتفاع البطالة مما سيؤدي حتما إلى أزمات سياسية.

وليس من هدفنا هنا تفصيلُ الحديث في الجوانب الاقتصادية للعولمة –مع أنها هي الأساس فيها– وسنقتصر حديثنا على نتائج هذه العولمـــة ومـــا يترتـــب عليهـــا بالضرورة؛ وهي الجوانب الثقافية والحضارية لاتصالها بالهوية، بعد أ ن نجيب عـــن الأسئلة التي طرحناها في البداية حتى نُلمَّ بالعولمة من أطرافها .

– اتساع العولمة :

العولمة التي يجري الحديث عنها الآن..نظامٌ أو نسقٌ ذُو أبعادٍ تتجاوزُ دائـــرةَ الاقتصاد لِتُعَولِمَ الإنسانَ في كلِّ مجالٍ، متحديةً قدرةَ خصوصياتِه القوميـــةِ والفرديـــةِ على الصُّمُـــودِ في وجهِ مدِّها، وواضعةً مناعتَه الذاتيةَ موضعَ اختبار صعب، علـــى سمع العالم وبصره، وفي غفلةٍ من بعضِ فصائِله المهمَّشَـــةِ تجـــري عولمـــةُ القِـــيَم والأخلاق وأنماطِ العَيْشِ ومناهجِ التفكير، وفي ظِلِّ هذه العولمة الشاملة يُرادُ أن تتعولَمَ الهوياتُ والخصوصياتُ كذلك.

إن العولمة ذاتُ أبعادٍ سياسيةٍ، واقتصاديةٍ، وثقافيةٍ، وإيديولوجيةٍ. وكان البدءُ بالميـــــدانِ السياسي عندما انخرط العالم في نظامِ الديمقراطيةِ الغربيةِ الذي أصـــبحَ لامناصَّ من تطبيقِهِ بتقنياتِه مضموناً وشكلاً، مما تعولَمَ معـــه شـــكلُ الحكـــمِ ونـــوعُ المشاركةِ فيه، وتعولَمت معـــهُ الآلياتُ الموصِلَةُ إلى إفرازِ اقتـــراع شـــعبي ســـليمٍ. وتكفَّلت المنظمات الدوليةُ بعولمةِ القانـــونِ الدولي والشرعيةِ الدوليةِ وحقوق الإنسان. وعولمتْ مواثيقُها نُظُمَ الحرب والسِّلم وطرائق التعاون الـــدولي. وبـــذلك تعولمـــت السياسةُ في أوسعِ معانيها التي تشملُ تنظيماتِ الحكـــمِ وشـــروط التعـــاون الـــدولي والعلاقات الدوليةِ العامة. وأصبحَ المجتمعُ الدوليُّ يَنضبط دقائـــقَ هذه العولمة ويتحكمُ فيها من أصغر مكوناتِه إلى هيأةِ الأممِ المتحدةِ بمرافقِها وعلى رأسها مجلسُ الأمن.

أما في المجال الاقتصادي فإن عولمةَ الاقتصاد – التي تحدثنا عنها – مَسَّـــت كلَّ ما يتصل بعيش الإنسان من إنتاجٍ واستهلاكٍ وتوزيعٍ وتبادلٍ .(7)

وفي المجال الثقافي أخذتِ العولمة تمسُّ الثقافةَ بمعناها العـــام؛ أي كـــل مـــا يجيشُ به فكرُ الإنسان من تصوراتٍ ونظرياتٍ وممارساتٍ، وما يخفِقُ به قلبُه ويرتاحُ له ضميرُه من تمتعٍ بحريـــة الفكر والتفردُ بالخصوصيةِ والشعورُ بالذَّات، والحـــوارُ بلغةِ الذَّات مع النفس والنـــــاس. والمشكلةُ المطروحةُ هي الاتجاه إلى صياغةٍ ثقافيةٍ عالميةٍ، لها قيمُها ومعاييرُها، و الغرض منها ضبطُ سلوكِ الدُّول والشعوب. والسؤال

هنا : هل تؤدي هذه الثقافةُ العالميةُ –حال قيامِها وتأسيسِها – إلـــى العـــدوان علـــى الخصوصيات الثقافية، مما يهدِّد هويات المجتمعاتِ المعاصرة ؟

وأخيراً، وليس آخراً..هناك عولمة اتصالية تَبرز أكثرَ ما تَبرز من خلال البث التلفزيوني عبر الأقمار الاصطناعية، وبصورةٍ أكثرَ عمقاً من خلال شبكة الإنترنـــت، التي تَربط البشرَ في كل أنحاء المعمورة، وتدور حول الإنترنت أسئلةٌ كبرى، ولكـــن من المؤكَّد أنَّ نشأتَهـــــا وذيوعَها وانتشارَها ستؤدي إلى أكبر ثورةٍ معرفيةٍ في تاريخ الإنسان.

وهكذا..فبدلاً من الحدود الثقافية، الوطنية والقومية، تَطرح إيديولوجيا العولمة "حدوداً " أخرى، غير مرئية، ترسمها الشبكاتُ العالميةُ قصدَ الهيمنة على الاقتصـــاد والأذواق والفكرِ والسلوك .

أ- العولمة الثقافية:

الثقافة بمعناها الواسع : مجموع السمات الروحية والمادية والفكرية والعاطفية التي تميز مجتمعاً بعينه أو فئة اجتماعية بعينها وأنها تشمل الفنون والآداب وطرائـــق الحياة والإنتاج الاقتصادي كما تشمل الحقوق الأساسية للإنسان ونظم القيم والتقاليـــد والمعتقدات .

إن سياسات ومآرب العولمة في المجال الثقافي التـــي تســـتهدف الهويـــات القومية ومقوماتها الرئيسة اللغة والدين والسمات التاريخية وأنماط العـــيش والســـلوك والعادات والتقاليد ومعطيات الاختلاف والتمـــايز بـــين المجتمعـــات تضـــعنا أمـــام مسؤولياتنا المادية والمعنوية والروحية الجوهرية في الحياة البشرية. (8)

من اجل الحفاظ على مكتسباتنا هذه أمام محاولات العولمة ومجابهة أي تهديد يؤدي إلى التغيير القسري والعمل على الاستفادة من الثقافات الأخـــرى مـــن خـــلال الحوار البناء .

إن مخاطر العولمة على الهوية الثقافية إنما هي مقدمة لمخاطر أعظم علـــى الدولة الوطنية والاستقلال الوطني والإرادة الوطنية والثقافة الوطنية ،فالعولمة تعنـــي مزيداً من تبعية الأطراف لقوى المركز.(9)

و من المفاهيم إستراتيجية للعمل والبناء وذلك بعيدا عن منطق ردات الفعل وأسلوب الرفض والمواجهة السلبية للتحديات، وبعيدا أيضا عن ممارسة الاســـتيراد

العشوائي من أوطاننا العربية للشعارات والمقولات الجاهزة والنسخ الببغائي للأشكال والأنشطة والتحركات.(10)

إن الدول والمنظمات الداعية والعاملة لفرض ظاهرة العولمـــة تعمـــل علـــى استثمار منجزات ثورة الاتصالات والتقدم التقني والتكنولـــوجي فـــي نشـــر ثقافـــة جماهيرية واحدة وبقوالب محددة مسبقة الصنع عمودها الفكري الاستهلاك وهذا مـــا نجده في المحطات الفضائية والذي يستنتج المراقب كأنها مخصصة للإعلان وترويج البضائع الاستهلاكية، فالإعلان أصبح سيد الموقف في كل الفضائيات وشكلت المواد الإعلانية هذه الهاجس والمسيطر والبوصلة التي توجه الأجيال الجديدة فـــي التفكيـــر والتعامل والبيع والعرض والترويج وأسلوب الحياة بكاملها وبذلك فإن هـــذه العولمـــة ستؤدي إلى تغيير في القيم الحالية والخصوصية الموجودة في مجتمعاتنا وتؤدي إلـــى حدوث تغييرات اجتماعية عميقة.(11) .

فالولايات المتحدة الأمريكية أعلنت بعد أن أصبحت الحاكم القوى في العـــالم أنها ستعمل على نشر القيم والسلوك الأمريكي ونمط الحياة الأمريكي في العالم كلـــه وهو ما يفتح باب الغزو للشعوب وعقائدها وثقافتها فالعولمة بـــالرغم مـــن الصـــبغة الاقتصادية لها فإنها تعمل من أجل أهداف أخرى تطال ثقافة الشعوب وهويتها القومية والوطنية ومصالحها وخصوصياتها في الصميم وترمي إلى تعميم نماذج وأنماط مـــن السلوك والعيش وفرض منظومات من القيم وطرائق التفكير والتدبير وتكـــوين رؤى وأهداف تعمل في خدمتها ومن ثم فهي تحمل ثقافة تغزو بها ثقافات ومجتمعات أخرى وتؤدي إلى تخريب منظمات وقيم وإحلال قيم أخرى محلها ليست بالضرورة أفضـــل من القيم التي لحق بها التخريب فضلاً عن كونهـــا لا تـــرتبط بخصوصـــيات الأمـــم وثقافاتها ولا يخلو ذلك من توجه استعماري جديد يتركز على احتلال العقـــل والإرادة وجعلهما يعملان وفق أهداف المستعمر وفي إطار خططه ومصالحه مع تحييـــد قـــوة الدولة أو إنهاكها واستلابها وانتزاع مقومات حضورها وتأثيرها الاجتماعيين وفرض نوع من الإدراك الواقعي مع إلحاق شلل بالوعي المنقذ والإرادة والقوة وطاقات الروح وبالإيمان وقدراته الخلاقة عند المؤمنين.(12) .

وهذا ما جعلنا نتذكر قول وزير الثقافة الفرنسي في مؤتمر المكسيك إن هـــذا الشكل من أشكال الامبريالية المالية والفكرية لا يحتل الأرض، ولكن يصادر الضمائر ومناهج التفكير واختلاف أنماط العيش وهذا ما قاله الرئيس الأمريكـــي بعـــد حـــرب

الخليج الثانية : إن القرن القادم سوف يشهد انتشار القيم وأنماط العـيش والسـلوك الأمريكي وفي هذا نزوع استعماري لغزو الآخـرين ولمهاجمـة الهويـات الثقافيـة والقومية وفرض التبعية عليها وإذابتها.

إن الغرب / سياسياً وثقافياً واقتصادياً / يرمي إلى تحقيق أهدافه بكل الوسائل الممكنة، ويضعها على رأس مشاريعه وسياسته ومنها فـرض التبعيـة مـن خـلال الاختراق والغزو الثقافيين وتخريب قيم الآخرين واستقطاب الأجيال الصاعدة بدغدغة غرائزها وتوجيه ميولها والتركيز على ما هو في سطح الاهتمامات البشـرية لـديها لحصرها في حيز السطح من الاهتمامات والمهام والتطلعات مستفيداً مـن فاعليـة التفوق والقوة والسيطرة والثروة التي لديه في هذا المجال للوصول إلى زعزعة الثقة ثم محو الشخصية ومقومات الآخر ونحن نعرف أن أهم مقومات الشخصية الثقافيـة لأمة من الأمم : اللغة والدين وبقية السمات والعادات والتقاليد والأعراف ومكونـات الذاكرة التاريخية للأمة. (13) .

و قد تجاوز مخطط التفتيت للمجتمع العربي الأبعاد السياسية والجغرافية إلـى الأبعاد الاجتماعية والثقافية والفكرية والروحية وتأتي العولمة لتحقيق هذه الأهداف إن النظام الأمريكي يعمل على تدمير البنى الثقافية للبلدان النامية من خلال تدمير بناهـا المجتمعية وعزل الثقافة عن الواقع وتهميش المثقف والحد من فاعليتـه فـي حيـاة مجتمعه لذا فإن العولمة أصبحت تحمل في طياتها نوعا آخر من الغـزو الثقـافي أي قهر الثقافة الأخرى لثقافة أضعف منها لأن العولمة لا تعني مجرد صراع الحضارات أو ترابط الثقافات بل أنها توصي أيضا باحتمال نشر الثقافة الاسـتهلاكية والشـبابية عالميا والخطورة في هذه الثقافة وبهذا تختلف العولمة عن العالمية والتي تعني إغناء للهوية الثقافية بينما العولمة تعني اختراقا فالاختراق العولمي يعنـي إلغـاء الحـوار والتبادل الحضاري والحلول محله ويستهدف العقل والنفس والذين هما الأداتان التي بهما يتم التفسير والتأويل والتسريع وقبول ما هو مفيد ومحاربة ومواجهـة مـا لا يتناسب مع خصائصنا بحيث انتقل من السيطرة عن طريق الايدولوجيا إلى السيطرة عن طريق الصورة السمعية والبصرية التي تسعى إلى تسطيح الوعي.(14) .

ب-تهميش الهوية والثقافة الوطنية:

تعمل العولمة على تهميش الهوية وتدمير وتحطيم الثقافة الوطنية وذلك بسبب محاولتها تحطيم وتدمير كل القوى الممكن أن تقف في وجهها، وفـي ظـل سـقوط

التجربة الأممية والاشتراكية التي كانت تقف كجدار في طريق انتشارها كان لابد من اختراع عدو جديد من أجل تسخير القوى الامبريالية لمحاربته وإفساح الطريق أمـــام مشروعها فكان لا بدمن تحويل الصراع نحو الثقافات الوطنية والإيديولوجيات الدينية التي كانت السبب الرئيس لتطور المجتمعات ماضياً ومن أهمهـــا الثقافـــة العربيـــة والإيديولوجية الإسلامية فبالرغم من أن العولمة الاقتصادية هي الأســـاس والهـــدف فإن الانعكاسات والامتدادات الاجتماعية والثقافية أصبحت واضحة ولا يمكن التغاضي عنها أو إغفالها مع التطورات السياسية العالمية من ناحية، وانتشار ثورة المعلومـــات والاتصالات من ناحية أخرى وكانت هذه الامتدادات كجسر يصل قوى العولمة للهدف الاقتصادي المنشود الذي لا يتحقق بإيديولوجيات وهويات قوية تســـتطيع التأســـيس لقوى ذات أخلاقيات رافضة لظاهرة العولمة .

وبحكم انتمائنا الإسلامي العربي فنرى أن ثقافتنا الإسلامية العربية تتعـــرض منذ زمن لقوى التقييد والتحديد من جهة وقوى التجديد والتحديث من جهة ثانية، وقوى الترويض والتهميش من جهة ثالثة ففي علاقة الثقافة العربية بالماضـــي نراهـــا فـــي الغالب تغالي في عرضه وتفسيره وتمجيده حينا وتقع أسيرة لقيوده ومحدداته وإخفاقاته حيناً ثانياً وتنهل منه دون تجديد أو إبداع أو تطوير حينا ثالثاً، أما فيما يتعلق بعلاقتها بالحاضر والمستقبل وما يرافقها من قوى العولمة وتأثيراتها فهـــي تتعامـــل معهمـــا بالغالب بإبداعات وانطلاقات يانعة الفروع ضعيفة الجذور أحياننا وبتمرد لا عقلانـــي غير مبرر أحياناً أخرى وبمحاولات للتجديد والتحديث دون شمولية أو قاعدة فلسفية أو مصداقية اجتماعية حينا وكل هذا بالطبع لا يقلل من أهمية الكثير مـــن الأعمـــال والنتاجات الثقافية المبدعة التي لم تنجح حتى الآن في بناء الزخم المناســـب وإيجـــاد الكتلة الحرجة اللازمة لتشكيل الفضاء الثقافي المتكامل المترابط والتي لم تؤد حتـــى الآن الانطلاقة اللازمة لإحداث التأثير المنشود والتغيير المستهدف، وهو التغيير الذي يرتبط بالانفتاح الواعي والتفاعل الايجابي والانطلاقة الواثقـــة دون الانقطـــاع عـــن الجذور والتنازل عن الهوية والخصوصية وبشكل عام تواجه الثقافة العربية في الوقت الحاضر مجموعة من الثنائيات التي لم تفلح في صقلها أو التغلب عليها والجدول الآتي يبين مجموعة الثنائيات التي تتعرض لها الثقافة العربية والتي هي عبارة عن ثقافتنـــا العربية الموروثة المتأصلة والمتجذرة ومجموعة أخرى من القيم والأخلاقيات التـــي

تعمل القوى التي تحاول عولمة العالم بشكل عام والبلدان العربية مـــن ضـــمن هـــذه البلدان.(15)

و من خلال الجدول (1) نجد أننا أمام مجموعتين من الخصائص الثقافية :

1 – المجموعة التي تتصف بها الثقافة العربية ونرى بعض هذه الخصـــائص التـــي كانت ذات نتائج إيجابية على الحضارة الإسلامية والعربية وأدت إلى تكوين بناء قوي ولكنها في فترات معينة لم تجد القوى التي تستطيع السير بها عـــن طريـــق التجديـــد والإبداع بما يتناسب التطور الزماني والمكاني علمـــا أن الكثيـــر مـــن الشخصـــيات الإسلامية والعربية التي كان لها دور كبير في التطور الحضاري العالمي كانت تشجع وتخطط وتوجه على اختلاف الأمور التي يجب أن تتطور تبعاُ للزمان والمكان كمـــا قال أحدهم "لا تجبروا أولادكم على ما أنتم به فقد خلقوا لزمان غير زمانكم".

2 – مجموعة القيم والأخلاقيات في العمود الثاني التي تتضمن الكثير من القيم التي تؤدي إلى التطور والحداثة ولكن لم تستطع الدول الغربية من التمتع بها وأن تجعلهـــا جزء من ثقافتها إلا بعد أن ناضلت كثيراً في ظل ظـــروف ومعطيـــات اقتصـــادية واجتماعية وسياسية وثقافية تختلف عن تلك التي يتصف بها مجتمعنا ويمكن الاستفادة من بعضها ولكن قوى العولمة تحاول إقحامها ليس من اجـــل تطـــوير وتحـــديث المجتمع العربي الإسلامي بل لتستطيع الوصول إلى النموذج الاستهلاكي الذي يؤدي إلى تحطيم جدار القيم والأخلاق والقوة والاندفاع الذي تتحصن به الشعوب الإسلامية والعربية عن طريق الموروث الحضاري والنضالي وتستخدم قوى العولمة من أجـــل هذا إقحام بعض الخصائص الجديدة التي تؤدي إلى انهيار فـــي القـــيم والموروثـــات الحالية للثقافة العربية القوى الإعلامية الجارفة من فضائيات وانترنيت وغيره عـــن طريق ضخ وتلهية الشعوب بالصورة الخلاعية الحاقدة وتقديم وترويج الأفلام والدعاية والأغاني الهابطة التي ستؤدي بنظرهم مستقبلاً إلى إسقاط الهوية العربية الإســـلامية لتحول الشعوب العربية إلى شعوب بلا قيم ولا مبادئ قوى مستسلمة لمصير مجهول ولكن هنا يجب القول أن التصلب اتجاه مفردات الجدول الثاني كذلك لن تكون نتائجه مضمونة وإنما يجب الدفاع عن طريق التفاعل المبرمج وحوار الأنـــداد فـــالموروث الحضاري العربي يملك القوة لمواجهة أي فرض، فبالرغم من الامتدادات العدوانيـــة والعنصرية للعولمة فإن الثقافة لدى الدول الضعيفة اقتصاديا وسياسيا أكثر قدرة على الصمود أمام تجاوزات العولمة من الاقتصاد والسياسة وقدرة الثقافة على مثـــل هـــذا

الصمود نابعة من أنها لا تتقيد بالنظام السياسي القائم وإنما بالنظام الشعبي السائد فهي أكثر ارتباطاً بقاعدة الهرم وأساساته وجذوره بينما يرتبط الاقتصاد كما السياسة بقمـــة الهرم والأجزاء العليا من جدرانه .ومن الأهداف الكبرى التي تعمـــل عليهـــا قـــوى العولمة عن طريق هذه الحرب الثقافية هو إضعاف دور الأســـرة العربيـــة كنـــواة للمجتمع العربي الإسلامي والحامل الأساسي للثقافة والمعتقدات العربيـــة الإســـلامية واللبنة الأساسية في مجتمعنا لتحل مكانها العلاقات المادية وهذا ما يـــؤدي تـــدريجياً لإنقاص دور الأسرة في المجتمع من خلال تنشئة الإنسان والمساهمة بتنمية قدراتـــه وإبداعاته مع مؤسسات المجتمع الأخرى مؤسسات التعليم والثقافة والدين.

جدول رقم (1) يبن مجموعة من الثنائيات التي تتصف بها الثقافة العربية من جهة ومجموعة الخصائص التي تحاول القوى الغربية التي تتبنى سياسة العولمة فرضها على المجتمعات ومن ضمنها المجتمع العربي

مجموعة الخصائص التي تتصف بها الثقافـــة العربية	مجموعة الخصائص الغربية والتـــي تحـــاول القـــوى الغربية فرضها ونشرها على دول العالم
الأصالة والخصوصية	الحداثة والمعاصرة
قوى التقييد بالماضي	قوى الترويض بالعولمة
قوى التحديد	قوى التجديد
التعريب	التغريب
الفكرو النظرية	العمل والتطبيق
المحلية	العالمية
المادة والواقعية	الروح والغيبية
الأنا	الآخر
النزوع للتقليد وردة الفعل	الانطلاق والإبداع والفعل والحزبية
التجمعات القبلية	التجمعات الفكرية والحزبية
امتلاك الحقيقة المطلقة	امتلاك الحقيقة القابلة للتطويرو التعديل
طاعة أولي الأمر	" من رأى منكم منكراً فليغيره

(16)المصدر : د. منذر واصف المصري " العولمة وتنمية الموارد البشرية الإمارات2004ص120

ج- الهوية والعولمة :

جاء في المادة الأولى من إعلان مبادئ التعاون الثقافي الدولي :

1. " لكلِّ ثقافةٍ كرامةٌ وقيمةٌ يجب احترامها والمحافظةُ عليها.

2. من حقِّ كلِّ شعبٍ ومن واجبه أن يُنَمي ثقافَتَهُ.
3. تُشَكِّلُ جميعُ الثقافاتِ، بما فيها من تنوُّعٍ خِصبٍ، وبما بينها من تباينٍ وتـــأثيرٍ متبادَلٍ، جُزْءًا من التراثِ الذي يَشتركُ في مِلكيتِهِ البشرُ جميعاً ".

وليس في تنوع الهُويات وتعدُّدِ الخصوصيات ما يتعارضُ وقضاءَ المصـــالح المشتركة بين الشعوبِ والأممِ في إطار التعاون الإنساني القائم على قاعدتَيْ التعارف والتعايش. وإنما ينطوي هذا التنوعُ على عناصرٍ تغذي الميولَ الإنسانيةَ الفطريةَ نحو امتلاك أسبابِ التقدم والرُّقِيِّ بحافزٍ من التنـــافُسِ الطبيعـــي، وبـــوازعٍ مـــن التـــدافعِ الحضاري.

ومادامت الهوية بهذا الرُّسوخِ في طبائعِ الأممِ والشعوبِ، فـــلا ســـبيلَ إلـــى تجاوُزِها، أو محوِها، أو انصهارِها في بَوْتقةِ هويةٍ واحدةٍ مُهيمنَةٍ ذاتُ سيطرةٍ ونفوذ. مهما تكنِ الذرائعُ، وبلغت ما بلغت الأسبابُ والدوافعُ، فليس في ذلك فقط خروجٌ على طبيعةِ الأشياء، وتمردٌ على سننِ الكونِ وفطرةِ الحياةِ، وإنَّما في محاولةِ إلغاءِ هوياتِ الشعوبِ بالقهرِ والقسرِ والإكراهِ، خرقٌ للقوانينِ المتعارفِ عليها عند البشـــر، ومـــسٌّ خطيرٌ بقواعدِ القانونِ الدولي، وتهديدٌ للأمن والسِّلم والاستقرار في العالم .

إنَّ فهمنا للهوية ينبني على تراثِنا الحضاري، فالهوية فـــي ثقافتنـــا العربيـــة الإسلامية هي الامتياز عن الأغيارِ من النواحي كافة. ولفظُ الهوية يُطلق على معـــانٍ ثلاثة: التَّشخص.. والشخص نفسه.. والوجود الخارجي، وجاء في كتاب [الكليـــات] لأبي البقاء الكَفَوي، أن ما به الشيء هو باعتبار تحقُّقِهِ يُسمى حقيقةً وذاتاً. وباعتبـــار تشَخُّصهِ يسمى هويةً. وإذا أخذَ أعمَّ من هذا الاعتبار يسمى ماهيةً.. وجاء فـــي هـــذا الكتاب أيضا..أن الأمرَ المتعقِّلَ من حيثُ إنَّهُ مقولٌ في جوابِ (ما هو) يسمى ماهيةً. ومن حيثُ ثبوته في الخارجِ يسمى حقيقةً. ومن حيثُ امتيازه عـــن الأغيـــارِ يســـمى هُويةً.

والهوية عند "الجرجاني" في [التعريفات] :(17)

« الحقيقةُ المطلقةُ، المشتملةُ على الحقائق اشتمال النواة على الشـــجرة فـــي الغيب المطلق» .

وتُستعمل كلمة " هوية "في الأدبيات المعاصرة لأداء معنى كلمـــة " Identité " التي تُعبِّر عن خاصية المطابقة: مطابقة الشيء لنفسه، أو مطابقته لمثيله .

وفي المعاجم الحديثة فإنها لا تخرج عن هذا المضمون، فالهوية هي:"حقيقة الشيء ،أو الشُّخُصِ المطلقة المشتملة على صفاته الجوهرية، والتي تُميزه عن غيره،وتسمى أيضا وحدة الذات ".

ولذلك فإذا اعتمدنا المفهومَ اللغوي لكلمة " هوية "، أو استندنا إلى المفهوم الفلسفي الحديث، فإن المعنى العام للكلمة لا يتغير، وهو يشمل الامتياز عن الغير، والمطابقةَ للنفس. أي خصوصيةَ الذات، وما يتميزُ به الفردُ أو المجتمعُ عن الأغيار من خصائصٍ ومميزاتٍ، ومن قيمٍ ومُقَوماتٍ.

وخلاصةُ القولِ، أنَّ الهوية الثقافيةَ والحضاريةَ لأمةٍ من الأممِ، هي القدرُ الثابتُ والجوهريُّ والمشتركُ من السِّماتِ والقَسماتِ العامةِ، التي تُميز حضارةَ هذه الأمةِ عن غيرها من الحضاراتِ، والتي تجعلُ للشخصيةِ الوطنيةِ والقوميةِ الأخرى .

فكيف يتسنى المحافظةُ على الهوية الثقافية والحضارية في ظل العولمة الباسطةِ نفوذَها اليومَ على المجتمع الدولي ؟ بل كيف يمكن التوفيق بين مقتضيات السيادة الوطنية، وبين متطلبات العولمة ؟.

إن اتجاهات العولمة تسير نحو التأثير السّلبي على الهوية والسيادة معاً. وأولُ ما يثيرُ الانتباه عندَ التأمُّلِ في موقفِ الغربِ من هُوياتِ الشعوبِ. هو جمعُه بين موقفين متناقضين، فهو من جهة شديدُ الاعتزاز بهوُيته حريصٌ عليها، وهو من جهة ثانية رافضٌ للاعتراف بالهويات الوطنية لشعوب العالم، لإحساسه بأن العولمة من شأنِها أن تؤدي إلى مزيدٍ من الوعي بالخصوصية الثقافية والحضارية. وتلك في نظر الغرب عموماً هي المعضلةُ الكبرى التي يصطدم بها، ويعبِّر مفكِّرُوه عن هذه الحيرةِ الفكريةِ بوضوحٍ وصراحةٍ لا مزيدَ عليهما.

ففي أحدثِ دراسة لصمويل هنتنغتون (SAMUEL HUNTINGTON) لم يسلَّط عليها الضوء كما جرى مع دراسة له سابقة، يتبين التناقض الذي تقع فيه القوة الجديدة المنفردة بزعامة العالم، وتتضح الحيرة العاصفة التي تسودُ مجتمع النخبة في الغرب. فقد كتب " هنتنغتون " في عدد شهري (نوفمبر – ديسمبر 1996) من مجلة [شؤون خارجية] دراسة تحت عنوانٍ مثيرٍ للغرابة فعلا : [الغرب: متفرد وليس عالمياً] The west Unique Not Universal) يُفرق فيها بين " التحديث" Modernization وبين "التغريب" Westernization ، ويقول :

« إنَّ شُعوبَ العالمِ غيرُ الغربيةِ لا يمكنُ لها أن تدخلَ في النسيجِ الحضـــاريِّ للغرب، حتى وإنِ استَهلكتِ البضائعُ الغربية، وشاهدت الأفلام الأمريكية، واســتَمَعت إلى الموسيقى الغربية. فروح أي حضارةٍ هي اللُّغةُ والدينُ والقيمُ والعاداتُ والتقاليــدُ. وحضارةُ الغربِ تتميزُ بكونها وريثَةُ الحضاراتِ اليونانيـــةِ والرومانيـــةِ والمســيحيةِ الغربية. والأصولُ اللاتينيةِ لِلُغاتِ شعوبِها، والفصلُ بين الـــدين والدولـــةِ، وســيادةُ القانونِ، والتعدديةُ في ظلِّ المجتمعِ المدنيِّ. والهياكلُ النيابيةِ، والحريـــةُ الفرديـــةِ ». ويضيف قائلاً:

« إن التَّحديثَ والنموَ الاقتصادي لا يمكنُ أن يحقِّقاَ التغريبَ الثقافيَ في المجتمعـــاتِ غيرِ الغربيةِ، بل على العكس، يُؤديانِ إلى مزيدٍ منَ التمسكِ بالثقافاَتِ الأصليةِ لتلـــكَ الشعوبِ. ولذلكَ فإنَّ الوقتَ قد حانَ لكي يتخلَّى الغربُ عن وهمِ العولمة، وأنْ يُنمِّـــي قوةَ حضارتهِ وانسجامِها وحيويتهاَ في مواجهة حضاراتِ العالم. وهذا الأمرُ يتطلـــبُ وحدةَ الغربِ بقيادةِ الولايات المتحدة الأمريكية، ورَسْمَ حدودِ العالمِ الغربي في إطـــار التجانُسِ الثقافي ».

فهلِ العولمة صيغةٌ جديدةٌ من صيغِ المواجهة الحضـــاريةِ التـــي يخوضُـــها الغربُ، بالمفهوم العام للغرب. ضدَّ هوياتِ الشعوبِ وثقافاتِ الأممِ، ومن أجلِ فرضِ هيمنةِ ثقافةٍ واحدةٍ، وإخضاعِ العالم لسيطرةِ حضارةٍ واحدةٍ ؟.

إن العولمة بهذا المفهومِ تتعارضُ – تعارضاً تاماً –مع قواعدِ القانون الدولي، ومع طبيعةِ العلاقاتِ الدوليةِ، بل إنها تتعارضُ كليةً مع الاقتصاد الوطني، ومع السيادةِ الوطنية، ومع قانونِ التنوعِ الثقافي. والعولمة إذا سارت في الاتجاه المرســـوم لهـــا، ستكونُ إنذاراً بانهيارٍ وشيكٍ للاستقرار العالمي؛ لأن العولمة بهذا المضمونِ تضـــربُ الهوية الثقافيةَ والحضاريةَ في الصميم. وتنسفُ أساسَ التعايشِ الثقافي بين الشـــعوبِ. كما أنَّ العولمة بهذا المفهومِ الشمولي ذي الطابعِ القَسْرِي، ستُؤَدي إلى فوضى علـــى مستوى العالمِ، في الفكرِ والسلوكِ، وفي الاقتصاد والتجارةِ، وفـــي الفنـــونِ والآداب، وفي العلوم والتكنولوجيا أيضا.

وعلى الرغم من ذلك كُلِّه، فإنَّ الإنسانيةَ لا تملكُ أن تُحرِّرَ في الوقتِ الراهنِ من ضغوطِ العولمة، نظراً إلى حاجيتها الشديدةِ إلى مسايرةِ النظامِ العالميِّ الجديد في اتجاهاته الاقتصادية والعلميةِ والتكنولوجيةِ، ولكنها تستطيعُ إيجادَ تيارٍ ثقـــافي مُضـــادٍ يقف في مواجهة روح الهيمنة التي تنطوي عليها هذه العولمة فكرةً ونظاماً، وتطبيقـــاً

وممارسةً، وفي التعاملِ مع الآثارِ المترتبةِ عليها، في انتظارِ بُروزِ قوى عالمية جديدة ستكون مُنَاوِئةٌ للقُوةِ المتحكمةِ حالياً في مقاليدِ النظام العالميِّ، أو على الأقلِّ مُنافِسةٌ لها منافسةَ الند للند .

إن طائفةً من علماءِ المستقبلياتِ ومن الدارسينَ الإستراتيجيين، ومُعظَمُهُم من الغربِ نفسُه، يذهبونَ إلى القولِ بأنَّ اختلالا حاسماً سيقعُ في ميزانِ القِــوى العالميــة على المستويينِ السياسي والاقتصادي في العِقدِ الأول من القرن الحــالي. وســيترتَّبُ على ذلك، انقلاب جذريٌّ في توجُّهاتِ العولمة، وهو الأمرُ الــذي ســيكونُ تعزيــزاً وترسيخاً وإعلاءً للشرعيةِ الدولية القائمةِ على قواعدِ القانونِ الدولي، لا على منطــق القوةِ والغلبةِ والظَّفرِ في معاركِ الحربِ الباردةِ .

إننا ومن خلالِ رؤيةٍ موضوعيةٍ إلى الواقعِ الدولي الراهنِ، نستطيعُ أن نقولَ، إنَّ الخيارَ المُتاحَ والمفتوحَ على المستقبل، هو أن تتظافَرَ الجهودُ الدوليةُ لترسيخِ مبدأ التنوعِ الثقافي، ولإنعاشِ فكرةِ الحوارِ بين الثقافــات والحضــارات، وللتأكيــد علــى ضرورةِ تفعيلِ التعاونِ الدولي الثقافي في إطارهِ الشاملِ الذي تندرجُ تحتَهُ كلُّ أنمــاطِ التعبيرِ الإنساني، وذلك للحدِّ من الآثارِ السَّلبيةِ للعولمةِ في شكلِها المُتَجَهِّمِ الذي لا يقيمُ اعتبارا للهوياتِ الثقافيةِ والحضاريةِ لشعوبِ العالمِ، والذي يــؤدي إلــى « ظــروف عسيرةٍ عصيبةٍ بما يتلاحقُ مــن مشــاكل، ويتفجَّــرُ مــن أزمــاتٍ، ويــتجهَّمُ مــن سحابٍ،ويتطاولُ للمادةِ من نفوذٍ، ويتضاءلُ من جاهٍ للروح وســلطان، ويُشــيع فــي النفوسِ من قلقٍ وخوفٍ. ويتوالى على الألسنةِ والقلوب من أسئلةٍ لا يطرحها التفــاؤل والاستبشار » .

هل في استطاعة العولمة أن تُهدر الهوية ؟

هناك فريقٌ من المفكرين يعتقدون أن العولمة وُجــدت لتكــون بــديلاً لكــلِّ الانتماءات الأخرى، ويقفُ إلى جانب هذا الفريق سائرُ رجالِ الأعمالِ الذين لا يهمهم من الحياةِ إلا الكسبُ، يُضاف إلى هؤلاءِ فريقٌ آخرُ هو الفريقُ الضائعُ التَّالفُ الــذي يشعرُ بالإحباطِ .

وقد كان من بين العناوينِ التي انتصبتْ أمامي وأنا أقرَأ عما كُتب حول هــذا الموضوع، عنوان: " العولمة آتيةٌ لا محالة، وعلينا أن نعملَ في اتجاهِ أخلاق كوكبيةٍ مُشتركةٍ"... كما كانَ ممَّا قرأتُه من عناوين :" الهوية تعني فكراً رجعياً بينما العولمــة تعني فكراً تقدُّمياً ".

على أن هناكَ فريقاً آخرَ يمكن أن نُنعتَه بالفريق المتفائلِ وهو الذي يميلُ إلى الاعتقاد بأنَّه لا يوجدُ تناقضٌ إطلاقًا بين العولمة وبين الهوية، فالعولمـــة تســـيرُ فـــي طريقها المعروفِ تعتمدُ على سيادةِ العِلم، بينما يكونُ من حق كل واحـــد أن يحـــتفظ بهُويته كما شاء وعلى الطريقة التي يريدها، ولو تعدَّدتِ الهوياتُ داخلَ هذهِ العولمةِ .

وهذا الفريقُ لا يُعجزه ضربُ الأمثلة بعددٍ منَ الدولِ التي بالرغمِ من أنَّ لُغتَها لُغةٌ مهجورةٌ عالمياً نُطقاً ورسماً، لكنها، أي تلكَ الدولُ، تُواكبُ العولمةَ بكـــلِّ أنـــواع المُواكبةِ في الوقتِ الذي تحتفظُ فيه بعادتِها وتقاليدها ومعتقداتِها. ويذكرونَ في صـــدر هذه الدولِ كمثالٍ على هذه المُرونةِ: اليابان والصين وكوريا، ولِمَ لا نذكرُ إسرائيل من بين تلك الجهاتِ التي نَعرفُ طريقةَ إملائِها وكتابتِها، ومع ذلك فإنها تقـــوم وبصـــفةٍ مستمرةٍ ومنتظمةٍ بترجمةِ سائرِ الكتب العلميةِ التي تظهر بلغات أخرى في سائر بقاعِ العالم، تُترجمُها فوراً إلى لغاتِها الوطنيةِ على مختلَفِ الصُّعد حتى لا تضْـــعُفَ أمـــام مسايرة الرَّكبِ العالميِّ خُطوةً خطوة، في الوقت الذي تحافظ فيه على هُويـــةِ أبنائهـــا وخصوصيتِهم . (18)

ومن هنا أتخلَّص إلى القولِ بأنه إذا كانَ من حقِّ الدُّولِ أن تختارَ لنفسها مـــا يناسبها، فإن علينا أن نكون في مقدمةِ الذين يستفيدون من العولمة شريطةَ أن نكـــون على أتَمِّ استعداد لمقاومةِ كلِّ المغرياتِ التي قد تعملُ على إذابةِ شخصيتِنا والقضـــاءِ على ثوابتِ هُويتِنا.

ولن تكون تلك المقاومةُ مجديةً ومفيدةً إلا إذا تمسَّكنا بلغتِنا وجعلناها وســـيلتَنا عن طريق الترجمةِ الأمينةِ لتَلَقِّي سائرِ العلومِ، ولن تكونَ تلكَ المقاومةُ مجديةً ومفيدةً، إلا إذا عرفنا كيف نحترمُ نحن عقيدتَنا ونقومُ بشـــعائرِنا دون مـــا شُـــعورٍ بمركَـــبِ ضعفٍ... إن ذلك هو الذي ســـيحمل الآخـــرين علـــى الالتفـــات إلـــى مقوماتِنـــا .

– العولمة: جدل العدوان والمقاومة الثقافيين :

ليس صحيحا أن العولمة الثقافية هي الانتقال مـــن حقبـــةِ –ومـــن ظـــاهرةِ– الثقافاتِ الوطنيةِ والقوميةِ إلى ثقافةٍ عُليا جديدةٍ هي الثقافةُ العالمية أو الثقافة الكونيـــةُ، على نحوٍ ما يدَّعي مُسَوِّقُو فكرةِ العولمة الثقافيةِ، بل إنها – بالتعريف – فعلُ اغتصاب ثقافيٍّ وعدوانٍ رَمزي على سائرِ الثقافات. إنها رديفُ الاختراق الذي يجري بالعنف – المسلح بالتِّقانة – فتنهَدِرُ سيادةُ الثقافةِ في سائرِ المجتمعاتِ التي تَبلُغها عمليةُ العولمة. وإذا كان يحلو لكثيرينَ أن يَتَحَذْلَقُوا بإفراطٍ في الرَّدِّ على هذا الفهمُ للعولمةِ الثقافيـــةِ،

فيرجُمُونَه بتُهمةِ الانغلاق الثقافي أمام تياراتِ العصرِ، والدعوةِ إلى الانكفاء والتَّشَرْنُق على الذاتِ (والهوية، والأصالةِ، ومشْتقاتِهما ...).

وإذا كان يحلو لهم أن يُعيدوا على أسماعنا مواويلَ الانفتـــاح الثقـــافي غيـــر المشروطِ على "الآخر" للانتهال من مواردِه ومُكْتَسَباتِهِ وكُشُوفِهِ المعرفيةِ... إلخ، فإنه يَطِيبُ لنا أن نُلفِتَ انتباههم إلى وجوبِ وعي الفارق بين التَّثَاقُفِ والعُنفِ الثقافي مـــن جانبٍ واحدٍ.

يعني الأولُ الإصغاءَ المتبادَلَ من سائر الثقافاتِ بعضِها إلى بعضِها الآخـــرِ، كما يعني الاعتراف المتبادَلَ بينها، ومنه الاعتراف بحق الاختلاف وهو مـــن أقـــدسِ حقوق الإنسانِ، فيما لا ينطوي الثاني سوى على الإنكارِ والإقصاءِ لثقافةِ الغيرِ، وعلى الاستعلاء والمركزيةِ الذاتيةِ في رؤيةِ ثقافتِه. يرادف الأولُ معنى الحـــوارِ والتفـــاهُمِ، بينما يتلازمُ معنى الثاني مع الإكراه والعدوان. أما الأهمُّ في الأمرِ، فهو أن التَّثـــاقُفَ يجري بين الثقافاتِ على قاعدةِ النِّدِّيةِ، وهو ما يمتَنِعُ دون اعتبار أيَّةِ ثقافةٍ لشخصِيَتِها وحُرمتِها الرَّمزية، فيما لا يُعبِّر فعلُ الاختراق والتجاوُبُ معه سوى عن دونيةٍ يأباَهـــا أيُ انفتاحٍ وأيُّ حوارٍ، هذا درسٌ بدائيٌ من دروسِ الأنثروبولوجيا الثقافيةِ المعاصـــرةِ حريٌ بدعاةِ الانفتاح أن يقرأوه قبل أن يفْتَتِحُوا طقوسَ التبشير.

أيُّ اختراق ثقافي هذا الذي نعنيه..أو ماذا يُمكنُها أن تكونَ تلكَ العولمة الثقافية إن لم تكن صناعةٌ لثقافةٍ عالميةٍ جديدةٍ ؟

ليست العولمة تلك – في مفهومنا– سوى السيطرةُ الثقافيةُ الغربيةُ على سائرِ الثقافات، بواسطة استثمار مكتسباتِ العلوم والتِّقانةِ في ميدانِ الاتصال. وهي التَّتـــويجُ التاريخِيُّ لتجربةٍ مديدةٍ من السيطرة بدأت منذ انطلاق عملياتِ الغزوِ الاستعماري منذ قرونٍ، وحقَّقت نجاحاتٌ كبيرةٌ في إلحاق التصفيةِ والمسخ بثقافاتٍ جنوبيـــةٍ عديـــدةٍ، وبخاصة في إفريقيا وأمريكا الشمالية والوسطى والجنوبية. ولعلَّ هذا ما يؤكدُ من أن العولمة لا تُؤرخ لنهاية عصرِ الدولة القومية، بل تُعلن عن ميلادِ حقبةٍ جديـــدةٍ مـــن تمدُّدِها المستمر، وليس ما يُدعى بالعولمةِ الثقافيةِ اليوم، إلاَّ مظهراً من مظاهرِ تلـــك التَّمدُّد خارج الحدودِ، الذي هو آليةٌ طبيعيةٌ في نظام اشتغال الدولةِ القوميةِ الحديثـــةِ. (19)

على أن هذه السيطرةُ الثقافيةُ الغربية العامة تنطوي –في داخلِها– على علاقةٍ أخرى من السيطرةِ تجعل ثقافات غربية عديدة في موقع تبعيٍّ لثقافـــةٍ أقـــوى تتمـــدَّدُ أحكامُها على امتدادِ سائر العالم. أما هذه السيطرةُ التي نعني، فهي التي يُمكنُنا التعبير

عنها بعبارة "الأمْرَكَةُ " "A mericanisation " والعولمة – في ما نزعم – هي الإسـمُ الحركيُّ لها. ليست الأمْركَة أسطورةٌ جديدةٌ من أساطيرنا السياسية، ولا هي شـماعة نُعلِّق عليها إخفاقاتِها وعجزنا، بل هي حقيقةٌ ماديةٌ تعيشُها أوروبـا نفسـها، وتحـتَجُّ عليها، وتُنظِّمُ مقاوَمَتَها ضدَّها، وتَعتَبِرُها خطراً إستراتيجياً يهدِّد استقلالها الاقتصـادي والسياسي وهُويتَها الثقافية. وقد تكون مُقاوَمَةُ فرنسا لها – بمناسبةِ مفاوضاتِ " الغاَت " – ودِفاعُها عماً باتَ يُعرف باسم الاستثناء الثقافي. أسطعُ دليلٍ على وُجودِها وعلى مخاطرِها، وهي –للتذكير– مقاومةٌ حقيقيةٌ وشرِسَةٌ وليست مسرحية سياسيةٌ للضـحِك على ذُقونِ أهلِ العالم الثالث.

كيف يمكن التعامل مع ظاهرة "العولمة " ؟

ما العمل إزاء هذه السلبياتِ والأخطار التي تطبَعُ علاقةُ العولمة بـالعرب علـى صعيد الهوية الثقافية ؟

هناك موقفان سهلان، وهما السائدان :

موقف الرفضِ المطلق وسلاحُه الانغلاق الكليُ وما يتبعُ ذلك من ردود فعلٍ سلبيةٍ محاربةٍ.

وموقف القَبولِ التام للعولمةِ وما تمارسُه من اختراق ثقافي واستتباعٍ حضـاري، شعاره "الانفتاح على العصرِ" و " المراهنةُ على الحداثةِ "

لا مفرَّ من تصنيفِ هذين الموقفين ضمن المواقف اللاتاَريخيةِ التـي تواجـه المشاكلَ، لا بعقلٍ واثقٍ بنفسه متمَكِّنٍ من قُدُراتِه، وإنما تستَقْبلها بعقـلٍ " مُسـتقيلٍ" لا يرى صاحبَه مَخرجاً من المشاكل إلا بالهروبِ منها، إما إلى الوراء وإما إلى الأمام، كلٌ سِلاحِه رؤية سحرية للعالَم تقفزُ على الواقع إلى اللاواقع.

إنَّ الانغلاق موقف سلبي، غيرُ فاعل، ذلك لأن فعلَه " المُوَجَّه " ضد الاختراق الثقـافي –أي محاربَتَه له– لا ينالُ الاختراق ولا يمسُّه ولا يفعلُ فيه أيُّ فعلٍ، بل فعلُه مُوجَّه كلُّهُ إلى الذاتِ قصدَ " تحصينها ". والتحصينُ إنما يكونُ مفيدا عنـدما يكـون المتحاربانِ على نسبةٍ مَعقولةٍ من تكافؤِ القِوى والقدرات.

أما عندما يتعلق الأمر بظاهرةٍ عالميةٍ تَدخل جميع البيـوت وتفعـل فِعلَهـا بالإغراء والعدوى والحاجة، ويَفرضها أصحابُها فرضاً بتخطيطٍ واسـتراتيجيا، فـإنَّ الانغلاق في هذه الحالةِ ينقلبُ إلى موتٍ بطيء، قد تتخلَّله بُطولات مُدهشـة، ولكـنَّ صاحبَه محكومٌ عليه بالإخفاق.

ومثلُ الانغلاق مثلٌ مقابله: الاغتراب .. إنَّ ثقافةَ الاختراق، أعني إيديولوجيةَ الارتماء في أحضانِ العولمة والاندماج فيها، ثقافةٌ تنطلـقُ مـن الفـراغِ، أي مـن اللاهُوية، وبالتالي فهي لا تستطيع أن تبني هويةً ولا كيانـاً. يقـول أصـحاب هـذا الموقف: إنه لا فائدة في المقاومة ولا في الالتجاء إلى التراثِ، بل يجب الانخراط في العولمة من دون تردُّدٍ ومن دونِ حدودٍ، لأنها ظاهرةٌ حضـاريةٌ عالميـةٌ لا يمكـن الوقوفُ ضِدها ولا تحقيقُ التقدُّمِ خارجَها. إن الأمرَ يتعلقُ بـ" قطارٍ يجب أن نركبَهُ " وهو ماضٍ في طريقِه بنا أو من دُونِنا.

وبعيداً عن مناقشةٍ جِداليةٍ لهذه الدعوى، يكفي التَّنبيهُ إلى أنَّها الدعوى نفسُـها التي سبق أنِ ادَّعاهاَ ونادى بها مفكرون عرب رُواد منذ أزيدِ من قرن، ومنـذ ذلـك الوقتِ وهي تتردَّدُ وتتكرَّرُ هنا وهناك في الوطن العربي، تبَنَّتْها حكومـاتٌ وأحـزابٌ فضلاً عن الأفراد...ومع ذلك فحَصيلةُ قرنٍ كاملٍ من التبشيرِ بهذه الدعوى، – دعوى " الاغتراب"– لم تُنتج سوى فئةٌ من " العصرانيين " قليلة العدد، نشاهدُ اليومَ تناقصـاً نسبياً واضحاً في حجمها، بينما ازدادَ ويزدادُ الطرفُ المقابلِ لها عددًا وعـدَّةً، كمـاً وكيفاً، في جميعِ الأقطارِ العربيةِ وداخلَ جميع الشرائحِ الاجتماعية. وهكذا فبدلاً مـن تياراتٍ "حداثية " تُمارسُ الهيمنةِ والقيادةِ تستقطبُ الأجيالَ الصَّاعدةَ، بدلاً مـن ذلـك يسودُ الحديثُ عن "الأصوليةِ الدينيةِ" بوصفها الظاهرة المهيمنة .

أما نحن فنرى أن الجوابَ الصحيحَ عن سؤال " ما العمـل "؟– سـواء إزاء الثنائيةُ (ثنائية التقليدي والعصري) والانشطار اللَّذين تُعانيهما الثقافةُ العربيةُ، أو إزاء الاختراق الثقافيُّ وإيديولوجيةُ العولمة – يجب أن ينطلقَ أولاً وقبل كلِّ شـيء مِـن العملِ داخلَ الثقافةِ العربيةِ نفسها، ذلك لأنه سواءٌ تعلق الأمـرُ بالمجـالِ الثقـافيِّ أو بغيرهِ. فمن المؤكد أنه لولا الضَّعفُ الداخلي لَماَ استطاعَ الفعلُ الخارجيُّ أن يمـارسَ تأثيرَه بالصورةِ التي تجعلُ منه خطراً على الكيانِ والهوية .

إن الثنائيةَ والانشطار (ثنائية التقليدي والعصري، ثنائية الأصالة والمعاصرة في الثقافة والفكر والسلوك) إنما يعكسان وضعيةً ثقافيةً لم تتِم بعد إعادةُ بِنائِها. ثقافةٌ يتزامنُ فيها القديمُ والجديدُ، والأصيلُ والوافدُ، في غير ماَ تفاعلٍ ولا اندماج– على حدِّ تعبير الدكتور محمد عابد الجابري– ، وهذا راجعٌ إلى أن التجديدَ في ثقافتناَ كان يُرادُ لهُ، منذ أزيدَ من قرن أن يتم من " الخارج ": بنشر الفكرِ الحديثِ على سـطحها، لأن تجديدَ الثقافة.. أية ثقافة.. لا يمكن أن يتم إلا من داخلها، بإعـادةِ بنائهـا ومُمارسـةِ

الحداثةِ في معطياتها وتاريخها والْتِماسِ وجوهٍ من الفهمِ والتأويلِ لمسَارها تسمحُ بربطِ الحاضرِ بالماضي في اتجاه المستقبل.

إن حاجتنا إلى تجديد ثقافَتنا وإغناءِ هُويتناَ والدفاع عن خصوصيتنا ومقاومـــةِ الغزو الكاسح الذي يمارسه، على مستوى عالمي، إعلامياً وبالتالي إيدْيُولوجياً وثقافياً، المَالِكُون للعلمِ والتِّقانةِ المسخِّرونَ لهما لهذا الغرض، لا تقلُّ عن حاجتِناَ إلى اكتســابِ الأُسُسِ والأدواتِ التي لابدَّ منها لمُمارسةِ التحديثِ ودخولِ عصرَ العلم والتِّقانةِ. دخول الذواتِ الفاعلـــةِ المســتقِلَّة ولـــيس دخـــول" الموضـــوعات" المنفعلـــة المســيَّرة . نحنُ في حاجةٍ إلى التحديث، أي إلى الانخراط في عصرِ العلـــم والتِّقانـــة كفـــاعلينِ مُساهمين، ولكننا في حاجة كذلك إلى مقاومةِ الاختـــراق وحمايـــةِ هُويتنـــا القوميـــةِ وخصوصيتناَ الثقافيـــةِ من الانحلال والتلاشِي تحتَ تأثيرِ مَوجاتِ الغزوِ الذي يمارَس علينا وعلى العالمِ أجمـــــع بوسائلِ العلم والتِّقانة، وليس هاتانِ الحاجتانِ الضروريتانِ متعارضتينِ كما قد يَبدو لأوَّلِ وهْلة، بل بالعكس هما متكاملتـــانِ، أو علـــى الأصـــح مُتلازمتاَنِ تلازُم الشَّرط مع المشروطِ.

ومن الحقائق البديهيةِ في عالمِ اليوم، أنَّ نجاحَ أيُّ بلدٍ من البلدانِ، الناميةِ منها أو التي هي في " طريق " النمو، نجاحها في الحفاظِ علـــى الهويـــة والـــدفاعِ عـــن الخصوصيةِ، مشروطٌ أكثرَ من أيِّ وقتٍ مضى بمدى عمق عمليةِ التحديثِ الجاريـــةِ في هذا البلد، عمليةُ الانخراط الواعي، النامي والمتجدر، في عصرِ العلـــم والتِّقانـــةِ. والوسيلةُ في كلِّ ذلك واحدةٌ : اعتماد الإمكانياتِ اللامحدودة التي توفرهـــا العولمـــة نفسُها، أعني الجوانبُ الإيجابية منها، وفي مقدمتها العلمُ والتِّقانة. وهـــذا مـــا نلمسُـــه بوضوح في تخطيطاتِ الدولِ الأوربيةِ التي يدقُّ في كثير منها ناقوسُ خطرِ " الغـــزو الأمريكي" الإعلامي الثقافي الذي يتهدَّدُها، في لغتِها وســـلوكِ أبنائِهـــا وتصَـــوُّراتِهم الجمعية، والتي يوظف أرقى وسائل العلم والتِّقانة – ومنها الأقمار الصناعية – فـــي اكتساح مختلَف الحقولِ المعرفيةِ والخصوصياتِ الثقافية .

إن أوربا اليومَ تتحدث حديث الخصوصية والأصالة، وتتحدث عن " الهويـــة الأوربية " تعزيزا لسيرها الجِدِّ على طريق تشييدِ الوحدةِ بـــينَ شـــعوبِها وأقطارِهـــا، بخطواتٍ عقلانيةٍ محسوبةٍ في إطارٍ من الممارسةِ الديمقراطيةِ الحقَّة. وهي بذلك تُقدِّم لمستعمراتِها القديمةِ، (أقطارِ العالمِ الثالثِ كلِّه)، نموذجاً صالحاً للإقتـــداءِ بـــه بعـــد ملاءمَتِه مع الخصوصيات المحلية

إن جُلَّ الحكوماتِ العربية، إن لم يكن جميعُها، تسعى اليومَ لتحقيق " الشَّراكة " مع أوربا، الشراكةُ في مجال الاقتصاد، وأيضا في مجال الثقافة، ومع أن هذه الشراكة المطلوبةِ تُمليها على الجانبينِ ظرفيةٌ تحكُمها المصالحُ القومية، فإنَّه لاشيءَ يضمنُ تحوُّلَها إلى عولمةٍ أخرى داخلَ العولمة الكبرى، غير شيء واحد، هو بناءُ الشراكةِ في الداخل كما في الخارج على الديمقراطية والعقلانية.

فهل للشعوب العربية أن تطالب بالشراكة مع أوربا في مجال اعتمادِ العقلانية والديمقراطية، في الفكر والسلوك، في التخطيط والإنجاز، في الاقتصاد والسياسة والاجتماع والثقافة ؟

استنتاج :

من خلال ما سبق نستنتج ما يلي :

العولمة تدعو إلى تجاوز الهوية القومية (الدين .. اللغة .. الأرض..التاريخ)، لصالح "هوية" أوسع. هوية كونية .فماذا يفعل الذين ما يزالون يسألون مَن نحن ؟. ماذا سيصنع الذين يدخلون القرن الواحد والعشرين بدون هوية، أو بدون (إنية) واضحة.

العولمة في بُعدها الاقتصادي، تعني هيمنة الشركات الاقتصادية، والمؤسسات المالية الكبرى واحتكار الأسواق، ومصادر الغِنى والثَّراء المادي، من طرف الأقوياء . وتسخير الضعفاء لخدمة التوجه الاقتصادي الليبرالي والأمريكي بامتياز. فما مصير الدول الضعيفة، والتي ما تزال تبحث عبثاً عن تنمية مُستديمة، دون جدوى؟ ما مصير دول ضعيفة معزولة متخلفة، أمام زحف تكَتُّلات اقتصادية ضخمة لا ترحم ؟.

والعولمة في بُعدها السياسي مرة أخرى، تعني من ضِمن ما تعنيه المزيد من الدَّعم والتَّمكين للمشروع الصَّهيوني الاستيطاني. فمذا يصنع الذين ما يزالون يجادلون حول كينونة (إسرائيل)، وضرورة مواجهتها، أم لا، وكيفية ذلك ؟.

هكذا هي العولمة، وغير العولمة، مما سيصنعه الأقوياء، الذين لن يتوقفوا عن إثبات زعامتهم، وتأكيد ريادتهم، وأستاذيتهم على الآخرين. وسيبقى على المتخلِّفين، والمتردِّدين، والتابعين، أن يسجلوا قوميتهم الحقيقية، أو يُوقِّعوا موتهم التاريخي الأخير.

خاتمة :

وسأختم حديثي هذا، بالعودة مرة أخرى إلى الجواب عن سؤالي، بالسَّلب، أي أنه ليس في استطاعة العولمة أن تقضي على هُوية الناس، بل إن الأمرَ على العكـــس من ذلك، فإنه بمقدارِ ما يشعُر المرءُ بأن هناك جهةٌ ماَ تقصد إلى النَّيل مـــن ماضـــيه والإجهاز على شخصيته وهدْرِ كرامتِه، هناك يأخذ في البَحثِ عن جُذورِه وأصـــولهِ، وهناك تتكاثفُ جهوُده ليعبِّرَ عن حُضورِه وَوُجودِه بكـــلِّ الوســـائلِ التـــي يمْتَلِكُهـــا . رأينا هذا رؤْياَ عينٍ في بعضِ مُهاجِرينا إلى الخارج مِمَّن كُنا نعتقـــد أنهـــم ابْتُلِعـــوا ورَاحوا، ولكناً لم نَلبث أنْ سمِعْناَ هؤلاء أنْفسَهم يطرقون علينا البـــابَ ليســـألوا عـــن ماضيهم.. وأخشى ما نخشاه من محاولة العولمة هدرَ الهويـــة، أن يتنبَّـــه أصـــحابُ الهويات إلى ما يُحدَق بهم، وهناك تكون المواجهةُ على أشَدِّها بين الهوية والعولمة .. هذه المواجهةُ التي سوف لا تنتهي إلا باحترامِ العولمة الهويـــة، واعتـــراف الهويـــة بجدوى التعاون في إطار العولمة.

ويمكن القول إنه في الفترة الأخيرة فقط، بدأت تباشيرٌ بدراسات جادة رصينة للعولمة وبتأثيراتِها في الوطن العربي، وربما يكون هذا الجهد علامة على طريق الفهم المُتعمق لظاهرةٍ مُعقَّدة ومركبة، ويمكن في ضوءِ هذا الفهمِ صياغةُ إستراتيجيةٍ عربيةٍ وقوميةٍ، تستدبر المواجهة الرافضةِ رفضاً مطلقاً، وتستشرف للتفاعل الحي الخـــلاَّق، لكن هل تسمحُ بهذه الإرادة السياسية العربية القومية ؟ هذا هو السؤال، وهو صـــلبُ الأزمة الراهنة في الوطن العربي .

المراجع :

1. أسئلة يجب الوعي بها/محمد عابد الجابري، الشرق الأوسط 1997/02/04.
2. أيديولوجيا العولمة الإمبراطورية العالمية/محمـــد عابـــد الجـــابري، الشـــرق الأوســـط 1997/02/06.
3. الإغتراب العربي/ د.محمد عادل التريكي، ضمن سلسلة مقالاتـــه فـــي: قضـــايا فكريـــة معاصرة..(مكتبته الخاصة).
4. التعريفات..الشريف علي بن محمد الجرجاني، طبعة دار الكتب العربية 1998 – بيروت.
5. الإعلام العربي وتحديات العولمة /د. تركي صـــقر ،وزارة الثقافـــة، دمشـــق، 1998ص 178.
6. التغريب وخطره على العالم الإسلامي /د . محمد عادل التريكي، ضمن سلسلة مقالاته في : قضايا فكرية معاصرة..(مكتبته الخاصة).
7. قضايا في الفكر المعاصر..محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعـــة الأولى يونيو 1997 – بيروت.
8. العولمة والثقافة /د .علي عقلة عرسان، الفكر السياسي، العددان (4 – 5)1999 ص225
9. الثقافة العربية بين العولمة والخصوصية/ د. حسن حنفي ، الفكر السياسي العـــددان (4 – 5) ص 248.
10. اشكالية الهوية والانتماء /علي حمدان ،المركز الاسترالي للدراسات السياســـية –ســـيدني 2005– ص9 .
11. الإعلام العربي وتحديات العولمة/ د. تركي صقر ، وزارة الثقافـــة، دمشـــق، 1998 ص 204
12. الصهيونية والعولمة/د. سعيد يعقوب، الفكر السياسي، العدد السادس عشر، 2002 ،ص264
13. العولمة والثقافة /د .علي عقلة عرسان، الفكر السياسي، العددان (4 – 5)1999 ص224
14. العولمة السياسية ومخاطرها على الوطن العربي/ د. محمـــد أحمـــد الســـامرائي، الفكـــر السياسي العدد 14 ص 118.
15. العولمة والهوية الثقافية : عشر أطروحات/محمد عابد الجابري، المستقبل العربـــي، عـــدد 228 فبراير 1998، مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت.
16. د. منذر واصف المصري " العولمة وتنمية الموارد البشرية الإمارات، 2004،ص120
17. الموسوعة الفلسفية العربية، الطبعة الأولى/1986 معهد الإنماء العربي – بيروت
18. العولمة والدولة/جلال أمين، المستقبل العربي، عدد 228 فبراير 1998، مركز دراســـات الوحدة العربية – بيروت.
19. مأزق أيديولوجيا العولمة/السيد ولد أباه، الشرق الأوسط 1997/02/02.